المحاضرة الخامسة عشر: فلسفة اللغة واللسانيات التاريخية والنحو المقارن في القرن التاسع عشر

شهد القرن التاسع عشر تحولات كبيرة في دراسة اللغة، إذ لم تعد اللغة مجرد أداة للتفكير أو للتعبير عن المعاني، بل أصبحت موضوعًا علميًا قائمًا بذاته. وقد أدى هذا التطور إلى ظهور ما يعرف بـ اللسانيات التاريخية والنحو المقارن، اللتين ركزتا على دراسة نشأة اللغة وتطورها وتحليل بنيتها الداخلية مقارنة باللغات الأخرى.

أولاً: فلسفة اللغة في القرن التاسع عشر

في هذا القرن، ارتبطت فلسفة اللغة ارتباطًا وثيقًا بالبحث العلمي، فالفلاسفة واللسانيين بدأوا يهتمون بدراسة اللغة كظاهرة تاريخية وثقافية. وقد كان السؤال المركزي هو: كيف تتطور اللغة عبر الزمن؟ وكيف ترتبط اللغة بالثقافة والفكر البشري؟

لقد ركز الباحثون على وظيفة اللغة في التعبير عن الفكر والثقافة، معتبرين أن كل لغة تحمل بين حروفها وبنيتها آثار تطور المجتمع. كما بدأت تظهر إشكالية العلاقة بين اللغة والفكر: هل اللغة تحدد طريقة التفكير، أم أنها مجرد أداة للتعبير عنه؟ هذا السؤال كان محور نقاش طويل بين الفلاسفة اللغويين والألسنة التاريخيين.

ثانياً: اللسانيات التاريخية

اهتمت اللسانيات التاريخية بدراسة تاريخ اللغة وتطورها عبر العصور. وقد برزت بشكل واضح في أوروبا خلال القرن التاسع عشر، مع التركيز على اللغات الهندوأوروبية.

فالباحثون في ميدان الالسن درسوا التحولات الصوتية، الصرفية، والدلالية في اللغات المختلفة عبر الزمن، للوصول إلى اللغة الأصلية التي اشتقت منها هذه اللغات. مثال: دراسة الصوتيات المقارنة بين السنسكريتية، واللاتينية، واليونانية، والتي مهدت لفهم أصل الكلمات والقواعد المشتركة بين هذه اللغات. هذا الاتجاه أظهر أن اللغة ليست ثابتة، بل تتطور تاريخيًا وفق قوانين طبيعية يمكن اكتشافها، وهو ما جعل دراسة اللغة علمًا دقيقًا يعتمد على التحليل التاريخي والمقارنة.

تضمن المنهج اللغوي التاريخي توجهين أساسيين:

الوعي بالصيرورة التاريخية: أي إدراك تطور اللغة عبر الزمن، وملاحظة تغير أصواتها ودلالاتها وبنيتها.

البحث عن القوانين التي تحكم الظواهر اللغوية: أي محاولة فهم الأنماط والقواعد التي تحكم تطور اللغة بشكل موضوعي، وليس بشكل اعتباطي.

هذان الاتجاهان اجتمعا في اللسانيات المقارنة، حيث صاغ العلماء مثل أوغست شلايشر منهجًا يربط بين اللغات وقراباتها التاريخية، مستفيدًا من نظرية التطور عند داروين. رأى شلايشر اللغة ككائن عضوي ينمو ويتطور ثم ينحل أو يموت، وهو تصور يربط بين الظواهر الطبيعية واللغوية. (دغبار، 2019)

ثالثاً: النحو المقارن

يجدر الإشارة إلى أنّ النحو المقارن ظهر كتقنية تحليلية مهمة ضمن اللسانيات التاريخية. يركز هذا النهج على مقارنة القواعد والصيغ بين اللغات بهدف فهم قوانين تطور اللغة. فاللسانيين قاموا بمقارنة الجمل، والأفعال، والتصريفات، وأنظمة التذكير والتأنيث بين لغات متعددة، لكشف الأنماط المشتركة والاختلافات

الجوهرية. مثال: مقارنة النظام الصرفي بين اللاتينية واليونانية واللغات الجرمانية، وتوضيح كيف تطورت أشكال الفعل والضمائر عبر الزمن. الهدف الأساسي للنحو المقارن كان إعادة بناء اللغة الأم أو اللغة الأصلية التي اشتقت منها مجموعات اللغات الحالية. اهتم الباحثون المقارنون بفحص الروابط بين اللغات الأم الأولى مثل السامية والحامية والأرية، ورصد التطورات في مستوياتها الأربعة:

الصوتية

الصرفية

النحوية

الدلالية

كما درسوا العلاقات السلالية والقرابات بين اللغات، مثل اهتمام راسموس راسك باللغات الإسكندنافية والجرمانية واليونانية واللاتينية والليتوانية والأرمنية، واعترافه بوجود روابط تاريخية بينها وبين اللغة الإيرانية والسنسكريتية.

رابعاً: أهمية هذه المرحلة

تعتبر هذه المرحلة في فلسفة اللغة مفصلية، لأنها حولت دراسة اللغة من مجرد تأمل فلسفي أو بحث منطقي، إلى علم موضوعي دقيق يعتمد على الملاحظة التاريخية والتحليل المقارن. وقد أظهرت اللسانيات التاريخية والنحو المقارن أن اللغة ليست مجرد أداة للتفكير أو للتعبير، بل هي ظاهرة متغيرة، قابلة للتحليل العلمي، ومرتبطة بتاريخ الشعوب والثقافات. كما أسست هذه الدراسات للمرحلة اللاحقة من اللسانيات الحديثة في القرن العشرين، التي ركزت على اللغة بوصفها نظامًا داخليًا مستقلًا عن المحتوى التاريخي والثقافي، كما جاء في أعمال فرديناند دو سوسير، مؤسس اللسانيات البنيوية.